باسمه تعالى

الأخلاق كإشكالية

الشيخ شفيق جرادي

تخلّقوا بأخلاق الله (المجلسي، 1983، ج 58، ص 129). كثيرًا ما ترد هذه العبارة في الحثّ على التخلّق، وهو – أي: التخلّق – التطبُّع بالشيم، وأن تتمثّلها في تكوينك النفسي والسلوكي، حيث تصبح سمة شخصيّتك وهويّتك.

وقد اهتمّت الأدبيات الدينية بعامل الأخلاق، وبربطه بالعلاقة مع الإله؛ فتمثُّل الإله هو انقياد للمثل الأعلى في حياة أهل الإيمان الديني، إذ إنّ صورة الإله تكون على وفق الخصائص التي يقدّمها حول نفسه، مثل: الفادي، والمحبّ، أو الهادي، والرحمن، أو غير ذلك. وهي خصائص تتحوّل إلى قيم عليا يسعى المؤمن إلى التخلّق بها، ما يحدث تغييرًا وجوديًّا في ذات المتخلّق، أي: إن الأمر يتعدى ظاهر أموره وحياته إلى أصل كينونته ووعيه وتبصّره. وهذا ما يستدعي السؤال عن علاقة الأخلاق بالدين، وعلاقة الأخلاق بالفلسفة، فهل الدين والفلسفة أمران لازمان للأخلاق؟ وهل للأخلاق قيمة تأسيسية في الدين والفلسفة؟ ثمّ إن كانت كل معالجة فلسفية تحثّنا على تتبع واقع ما إلى بداياته اللازمنية؛ تلك البدايات المرتبطة بالمنشأ الوجودي، فمن حقّ السؤال أن يواكب مصدر الأخلاق في تكوينها الأول أهو الذات الإلهية في أسمائها وصفاتها، أم أنّها ذات الإنسان في نزوعه الفطري الأول؟

الأسئلة هنا هي إشكالية البحث الأول في الأخلاق، وعنه يمكن أن يتفرّع كثير من الأسئلة الإشكالية. أما الإجابة فهي النطاق الذي يسمح لنا معالجة الموضوع على حسب المسلك الذي اعتمدناه.

في هذه الافتتاحية، لن أكون معنيًّا بالتصدي للإجابة، لكن ما أريد قوله: إنّ قيمة المبحث الأخلاقي عالية إلى درجة أنّ ما من إجابة تجاوزت أصل الأخلاق وواقعيتها. فأن تعتقد أن الثواب والعقاب الديني هو منشأ الأخلاق، أو أن ترى المدح والذمّ والمصلحة هي منطلقه، أو أن تذهب لاعتبار النفس في قوامها هي التي تتوالد عنها الأخلاق، أو أن تؤمن أن ابتغاء وجه الله هو علّتها

وغايتها التي منها تولّدت، فهذه كلها مسالك تؤدي إلى مقصد هو الأخلاق وأهميّة التخلّق، لكن من الضروري التأكيد على أنّ الأخلاق منها: ما طبيعته ومفاعيله صالحة وخيِّرة، ومنها ما يقوم على غير وئام مع حياة الإنسان فردًا وجماعة.

وإذا تحدّث الإسلام عن هدف بعثة النبي محمّد (ص)، وأنّها كانت لغاية أخلاقيّة "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" (المجلسي، 1983، ج 68، ص 382)، ما دعا إلى ربط المضمون الأخلاقي بكل مفردة عقدية وتشريعية ووعظية؛ ودفع علي بن الحسين (ع) في صحيفته السجادية ليخصّص الدعاء الأكثر شهرة بالأخلاق؛ "مكارم الأخلاق ومرضيّ الأفعال"، فإنّ مفردة المكارم تستلزم إمكان غيرها، ممّا هو ليس بصالح وخيِّر، كما أنّ مرضيّ الأفعال هو دمج للسلوكيّات ومظاهر التخلّق بأصل المبحث الأخلاقي، وأنّ فيه ما هو مُرْضي، وما هو غير مُرْضي. وهذا ما يدفعنا إلى السؤال مجدّدًا حول منشأ أخلاق الشرّ والقبح والتزوير، كإشكالية كبرى.

فهل الأمر يعود إلى الأصل الأول من تكويننا الأخلاقي؟ أم أنه بفعل أمور أخرى؟ وهل الإنسان منقسم في ذاته بين مصدري الخير والشر؟

اعتبرت المسيحية أن كينونة الإنسانية قائمة على الخطيئة الأصلية، على الرغم من أن الله خلق الإنسان على صورته، وهذا بذاته فرض نحوًا من اللاهوت الجدلي انبنى في توفيقياته على المحبة الرادمة للهوّة. أما في الإسلام، فعلى الرغم من أن الإنسان مجعول بالجعل الوجودي على الفطرة السليمة، وأن المشيئة الإلهية اختارته خليفة لله سبحانه في أرضه، فإنّ أول اعتراض قُيِّد بحقّ الإنسان في مسار خلقه وولادته كان اعتراضًا أخلاقيًّا ﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء**﴾ (القرآن الكريم، سورة البقرة: 30).

إنّ التركيز هنا – في هذا الاعتراض – على فعل قبيح ينمّ عن طبيعة لا تنسجم مع الغاية المتوخّاة مع الدور والوظيفة التي أرادها الله للإنسان. ما يعني أن البعد الأخلاقي أصل في أهليّة الدور السياسيّ والاجتماعي في الحياة.

لكنّ المفاجئ أن ردّ مؤدى الاعتراض كان ﴿**إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**﴾ (سورة البقرة: 30). ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا**﴾ (سورة البقرة: 31). فما علاقة الأسماء سواءًا كانت حقائق الكون أم

حقائق الوجود المرتبطة وجودًا ربطيًّا بأسماء الله الحسنى التي دعت المتصوّفة انطلاقًا منها لإطلاق تسمية خاصة على الإنسان "مستودع الأسماء والأسرار الإلهية"؟

الأخلاق وصال عَالَمَيْ الغيب والشهادة

يتبادر إلى الذهن أن عتبة الميتافيزيقا واللاهوت هي الأخلاق، وعنها يطلّ الإنسان إلى عالم الدنيا والممارسة اليومية والزمنية. لذا، بإمكانك الحديث حول أخلاق كلّيّة، كما بإمكانك الحديث حول نسبية الأخلاق. لكن الاقتصار على وجه واحد هو تناول طرف منها من دون الآخر، فهل هذا يسمح بفهم وجودي للأخلاق؛ فهمًا وجوديًّا بمعناه الأنطولوجي، أو إن شئت الزمني الذي يبني وجود إنسان الـ"هنا"؟ وأي الطريقين يمكننا الانطلاق منه: طريق "الظاهر والباطن"، أم طريق "الدين في حدود العقل" الذي اقترحه كانط، وبنى من بنى عليه من بعده مسالك ومدارس؟ إذ رأى "أنّ الأخلاق إنما تقود على نحو لا بدّ منه إلى الدين، وعبر ذلك تتوسع إلى حدّ فكرة مُشرّع خلقي واسع القدرة خارج عن الإنسان في إرادته، تكمن تلك الغاية النهائية (لخلق العالم) التي ينبغي، ويجب أن تكون الغاية النهائية للإنسان" (كانط، 2021، ص49).

فالأخلاق، في أصولها، لا تقوم على الدين، لكنّها في غاياتها، وفي بعض ضرورات إنفاذها تستوجب وجود سلطة عليا هي التي توفّر ما تحتاجه الأخلاق في فاعليّتها وتوسيع قوّة الواجب فيها.

الفارق بين الطريقين (الظاهر والباطن، أو أن الأخلاق تستوجب الدين) كبير. ففي الأول، يعود محور الأمر إلى الله وتمثّلاته، بينما في الثاني، المحور هو الإنسان ولإكمال ضروراته الأخلاقية كان الدين. لكن في الطريقين هناك نحو من حاجة ما إلى نظام أخلاقي يقوم على العبادة، ففي الأول لأن الله يُعبدُ ذاتًا، وفي الثاني لأنّ العبادة تقوّي سلطة الواجب الأخلاقي.

وقبل أن ننزلق في بحثنا، فندخل نطاق الإجابات، لا بدّ من أن نعتبر ما قُدِّم بمثابة محطّة أوّلية لإثارة إشكاليات في المبحث الأخلاقي تتفرّع منها أسئلة أخرى. من ذلك، ما المائز بين الوجود والأخلاق؟ وكيف نبني تصوّرًا للأخير، وكأنه رتبةٌ من مراتب الوجود؟ ثمّ أَلَمْ يتّجه فلاسفة الأخلاق – كما الفلاسفة التقليديون – لاعتبار أنّ مفتاح البحث في الوجود هو العقل النظري، في حين تعود

الأخلاق إلى العقل العملي؟ وهل يكفي في الإجابة أن ننقل ما قالوه من كون العقل واحد، وأنّ قِسْمَيْه: النظري والعملي هو من باب التفريق في الفاعليّة المتنوّعة للعقل؟

أمّا فيما يخصّ وقوف الدين كحدّ لا بدّ منه في حركة العقل، ألا يأخذنا هذا إلى اعتبار أن السلطة الإلهية العليا هي وليدة حاجة ما اقتضاها الواجب الأخلاقي المكتمل الأوصاف والكينونة؛ ليعبِّر عن نفسه؛ فيصير بذلك صاحب السلطة العليا المفترضة هنا (الله) هو التابع لسلطة حقيقية كنّا قد افترضناها محتاجة إليه، وهذا خلف المفروض؟

مسارات على طريق تحوُّلات المبحث الأخلاقي.

إلى هنا، كنّا في إشكالية الأخلاق مع مسارين يشتركان في جملة من الأمور، ويفترقان في أمور أخرى، إلّا أنّ نطاق البحث فيهما يعود إلى طبيعة علاقة الإنسان الأخلاقي بالدين. فهل ذات الإنسان المبنية في هويّتها على الأخلاق أفاض الدين عليها مكارم الأخلاق ومرضيّ الأفعال؟ أم أنّ الأصل في الأمر هو أن الأخلاق لما احتاجت إلى سلطتها على الذات لجأت بالضرورة إلى سلطة عليا تتمثّل في الدين؟

فالأخلاق ثابت، والدين ثابت، ومضمون الشخص الأخلاقي المبني على رقابة الذات وفق الأصول الأخلاقية أيضًا ثابت في كلا المسارين على الرغم من الاختلاف الشديد في تقييم موقع الدين والإنسان الديني بينهما. لكنّ الإشكالية الأخلاقية تنفلت من عقالها عندما يتمّ فكّ أواصرها بأمرين: الرقابة الإلهية، أو الرقابة على الذات بناء على الواجب، أو الضرورة الأخلاقية. فبعد أن حوّلت الفلسفة الوضعية – مثلًا – الأخلاق إلى مجرد قضية محكومة بالتناسق المنطقي، وحاكمتها على وِفق رؤية جعلت من اللغة الأخلاقية مورد فراغ، وعندما ربطت مدارس فلسفية وباحثة في الأنثروبولوجيا وغيرها من علوم إنسانية الأخلاق بالمكوَّن الثقافي، وحكمت عليه معرفيًّا بالنسبية وعدم الاطراد، ثمّ جاءت سلطة السوق والمهنة لتتعامل مع الأخلاق كأمر تقني إجرائي يخدم الربح والامتيازات... صار البحث في الأخلاق إشكالية خاضعة لمهبّ ريح السياسات والمصالح، فتارةً نبحث في الأخلاق الكونيّة بديلًا عن كل دين، إلا ما ترسمه حضارة القوّة والسيطرة، وأخرى نخضعه لحيثيّات تبيح تحويل الجنس البشري إلى هويّات لا عبرة فيها للذكر والأنثى، وثالثة تجعل القيمة لكلّ ما هو سريع وعابر من مثل عالم الأثير، وتكنولوجيا التواصل والاتصال، بل وعالم الرغبة والانشغال بالفراغ، حيث لا رقابة ولا ضمير ولا سلطة

دين أو أخلاق. هنا، يصبح لبحث الأخلاق دواع إشكالية تتجاوز حدود المنهج والتجريد لتعبر نحو اللحظة في صيرورة العالم الحضارية، وفي حفظ وجود الإنسان، ولا أقصد باللحظة – بما هي – مقطعًا مفصولًا من زمن له ما قبله كما له ما بعده، بل بما تختزنه اللحظة من امتداد لتاريخ بعيد، وتطلع نحو آتٍ من المستقبل. هنا، تصبح اللحظة مسؤولية بقدر ما هي حرّة، وبهاتين القيمتين: (الحرية والمسؤولية) يبدع المرء في صناعة ذاته بموجب جعل إلهي، أو على وِفق ما ينبغي أن يكون.

هذه المهام التاريخية تفرض علينا أن نستقرئ ما قدّمته الجماعات على تنوّع انتماءاتها في مقاربة إشكالية الأخلاق والفعل الأخلاقي، ودوره في تأسيس كرامة الإنسان وبناء صلته مع الله والعالم والتاريخ.

مع العدد

تنبني أبحاث العدد ضمن ثلاثة أبواب: أوّلها ملف العدد، وثانيها باب الحوارات، وثالثها باب البحوث والدراسات.

يحوي الباب الأوّل تسعة أبحاث.

يمثّل البحث الأول "فلسفة الأخلاق: علم أم فلسفة" مقدمة لملف العدد، يهدف سورين تيودور مكسيم من خلاله إلى تقديم حجّة مفادها أنّ الأخلاق هي فكرٌ نظريٌ منهجي يعالج المبادئ والقيم الأخلاقية، جامعًا ازدواجية الفلسفة والعلم، من دون إمكانية تحديد أي الطابعين أكثر أهمية بدقة.

أمّا البحث الثاني "الأخلاق والنظريّات الأخلاقيّة من منظور إسلامي"، يعرض الكتّاب معاني المفاهيم الأخلاقية من منظور إسلامي بغية فهمها. ويقارنوا بين وجهات النظر الأخلاقية الإسلامية والغربية، من أجل تسليط الضوء على نقاط الضعف الرئيسة والقيود في المنظور الإسلامي؛ لتقديم الحجة لبرهنة قدرة الإسلام على تقديم أفضل مفهوم للأخلاق.

وتشير الورقة البحثية الثالثة التي تحمل عنوان "دور النيّة في القيمة الأخلاقيّة" إلى تأثير النيّة على القيمة الأخلاقيّة من خلال تحليل النيّة على مستويين: الفعل الجوارحيّ الذي بموجبه تتحدّد النيّة وفق الكمال

المتَعَلّق النهائي لنيّة الفاعل، والفعل الجوانحيّ الذي بموجبه تكون النيّة هي الشيء الوحيد الذي يتمتّع بقيمةٍ أخلاقيةٍ غيريةٍ.

ثم بعد ذلك، عرض أفضل بوكى في بحثه "تقييم نظرية إطلاق الأخلاق ونسبية الفعل الخلقي بحسب رأي الشهيد مطهّري" رؤية الشهيد لنظريّة إطلاق الأخلاق ونسبية السلوك والفعل الخلقيين. وفصّل في مباني نظرية إطلاق الأخلاق ونسبية الفعل، وأفرد قسمًا لنقد نظرية الشهيد مطهري وتقييمها عبر إيجاد أدلّة من داخل النظرية وخارجها ومقاربتها مع آراء علميّة لإثبات التعارض أو التوافق فيها.

كما عرض بحث "الوجدان الأخلاقي عند العلّامة الجعفري" مفهومَ الوجدان الأخلاقي وأدلّة إثباته وتطبيقاته بحسب رؤية الأستاذ الجعفري. وأفرد الباحثان القسم الأكبر للردّ على الأسئلة والإيرادات المتعلّقة بالوجدان الأخلاقي، وتطبيقاته من الناحية الشخصيّة والمجتمعيّة، ثمّ عرضا النقوض الواردة على آراء العلامة في الوجدان الأخلاقي، والتحقيق فيها.

وأظهر البحث السادس لمجتبى مصباح "دراسة تحليليّة نقديّة لنسبية الأخلاق أقسامًا وأدلّة" تعريف إطلاق الأخلاق ونسبيّتها. بعد ذلك، تعرّض لنقد مباني نسبية الأخلاق وأهمّ أدلّتها، وعدّد التناقضات النظرية والنتائج التي لا يمكن الالتزام بها عمليًّا، على أنّ المدرسة الأخلاقية الإسلامية لا يمكنها أن تتوافق مع نسبية الأخلاق.

أمّا علي رضا آل بويه فقد عرض في بحثه "حال فلسفة الأخلاق في الحوزة العلميّة في القرن الأخير" لتاريخ فلسفة الأخلاق التي انطلقت بعد انتصار الثورة الإسلامية، والعلماء الذين خاضوا هذا المبحث، منهم: الشهيد مطهّري، وآية الله الشيخ مصباح اليزدي، والعلّامة محمّد تقي جعفري، وآية الله السبحاني، وآية الله جوادي آملي.

أمّا في البحث الثامن "فلسفة الخلاق عند مسكويه، فقد فرّق أحمد ماجد بين الأخلاق الفوقيّة والأخلاق المعياريّة، وعرض رؤية مسكويه حول فلسفة الأخلاق والغاية منها وأخلاقيّاتها، مضافًا إلى مقاربة رؤية سقراط وأفلاطون لهذا الموضوع.

والبحث الأخير في ملف العدد، هو "جورج إدوارد مور ونظريّة الفعل الأخلاقي أو الصائب في أخلاقيّات العواقب الاجتماعيّة" الذي شكّل التحليل النقدي الذي قدّمه جورج إدوارد مور للفعل الصائب في الأخلاق النفعية، إضافةً إلى مفهومه العواقبي للفعل الصائب، نقطة انطلاق لنظرية الفعل الأخلاقي أو الصائب في أخلاقيات العواقب الاجتماعية.

وفي باب "حوارات"، أجرت مجّلة المحجّة حوارًا مع الدكتور محمّد عربي يتعلّق بتجربته الخاصّة في كتابه **الأخلاق في الفكر العربي والإسلامي**، بغية إظهار أهميّة الكتاب في موضوع فلسفة الأخلاق، وأنّه سلسلة من مشروع يهدف إلى رصد الموروث والحاضر في مجال الأخلاق من خلال تتبّع المذاهب والشخصيات الأعلام.

أمّا في باب "بحوث ودراسات"، ففيه ثلاثة أبحاث.

درس يد الله يزدانپناه في بحثه "قدرات العرفان الإسلامي في صناعة الحضارة" أسباب عدم تحقّق الحضارة المطلوبة على أساس العرفان الإسلامي، على الرغم من وجود النتائج الحضارية المثمرة في قسمين: القسم الأول يُظهر قدرة العرفان على توصيف الحضارة وصلاحيّته في هذا المجال، أمّا القسم الثاني فتحدّث عن كيفية أداء العرفان دوره في هندسة الحضارة الإسلامية.

وسعى نبيل الياسميني في البحث الثاني بعنوان "فيتغنشتاين عن المعنى واللاّمعنى وفارغ المعنى" إلى توضيح المقصود من عناصر هذا الثلاثي، واستخدامات كلٍّ واحد منها، مع تحديد علاقته بقيمة الصدق، وكيف أثّر التمييز بين العناصر الثلاثة على منهج المدرسة التحليليّة.

أمّا البحث الثالث والأخير "إنتاج الهويات أواخر الدولة العثمانية: الصراع العثماني/اليوناني وتشكيل "الآخر" لمحمّد البشير رازقي فقد عالج مشكلة العلاقات العثمانية–اليونانية، كيف بدأت، وتطّورت، وكيف قادت هذه التوترات إلى مواجهات عسكرية بين الطرفين أفضت في النهاية إلى استقلال اليونان عن الدولة العثمانية.

كما تتمنّى مجلّة المحجّة أن يكون هذا العدد وغيره مدًّا وعونًا لطلّاب العلم والمعرفة، وخطوة من خطوات هذا الدرب الطويل والممتع والشاقّ.

قائمة المراجع

كانط. (2021). **الدين في حدود مجرد العقل** (ترجمة: فتحي المسكيني) (الطبعة 1). بيروت: دار جداول للنشر والتوزيع.

المجلسيّ، محمّد باقر.(1403هـ/ 1983م). **بحار الأنوار** (الطبعة 2 المصحّحة). بيروت: مؤسّسة الوفاء.